المسيح

بين

الأسطورة و الحقيقة

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

الكتاب : المسيح بين الأسطورة و الحقيقة
الكاتب : أ. كر يفيليوف
ترجمة : رامز نعيمة
الطبعة الأولي / ٢٠٠٥

جميع حقوق النشر محفوظ

الناشر : الشعاع للنشر و التوزيع
٣شارع ٣٣٨ من شارع الجزائر المعادي
ت /٥١٦٣١٩٠
المدير المسؤل / عمرو بيومي
الغلاف : وليد سيد

رقم الايداع / ٢١٣٤٥ / ٢٠٠٤

المسيح

بين

الأسطورة و الحقيقة

تعريب : رامز نعيمة

بعض الملاحظات التمهيدية

على امتداد القرون العشرين الأخيرة بقى يتردد اسم يسوع المسيح باستمرار ودوى فى التاريخ وفى حياة ملايين الناس. وتغلغل فى كل ميادين الحياة الاجتماعية والشخصية. وباسمه اجترح الخير وارتكب الشر، اجترحت مآثر الرحمة وارتكبت أفعال لا حدود لقسوتها ووحشيتها. وقد استخدم هذا الاسم لتغطية وتقديس المصالح المغرضة لملاك العبيد وأصحاب الأقنان والرأسماليين والغزاة المستعمرين، ووجدت أحلام المضطهدين بمعاقبة المستعبدين، وبالنظام الاجتماعى المثالى وبالحياة الأفضل تعبيرها فيه أيضا. لقد تكونت صورة المسيح فى ذاكرة الناس، فى الذاكرة التاريخية لقرابة ألفين من السنين كشىء متعدد الوجوه ومتناقض.

ويبدو موقف الناس الذاتى من شخصية المسيح متباينا: من الخضوع والحب العميقين إلى الازدراء والكراهية. وبين هذين القطبين يقع الكثير من الحلقات الانتقالية. لن نأتى على ذكرها هنا، بل سنورد فقط مثالين على الأقوال المتعارضة أشد التعارض.

أن المسيح بالنسبة إلى أرنيست رينان شخصية ينبغى وضعها فى " قمة لا تطالها" العظمة البشرية. وتحتوى مؤلفات مفكرى التنوير الفرنسى على وصف للمسيح فى غاية السلبية، لن نزن الآن درجة وجاهة هذين التقديرين. ما يهمنا فى المرحلة الحالية من عرضنا هو مجرد تبيان مدى تنافرهما.

فى بداية إعداد هذا القسم من الكتاب كان المؤلف ينوى أن يضع له هذا العنوان " شخصية المسيح فى الذاكرة التاريخية على امتداد الفى سنة" ولكن اتضح سريعا أن كتاب

فصل كهذا على نحو متكامل أمر مستحيل: إذ لم يوجد يوما ولا يوجد الآن تصور واحد لشخصية يسوع يظهر فى الوعى الاجتماعى وفى الأدبيات فى كل الأزمنة، وحتى لدى كل الاتجاهات الأيديولوجية لزمن واحد بعينه. ولا توجد فى عصرنا أيضا صورة واحدة للمسيح، بل توجد أشكال مختلفة جدا لهذه الصورة. ولذا سمى هذا الفصل من الكتاب " المسيح المتعدد الوجوه، وسيحاول المؤلف القاء الأضواء على بعض هذه الوجوه".

وهذه مهمة صعبة، لأن تناول تفسير شخصية المسيح نفسه هو متباين عند مختلف المفسرين: البعض يرون فيه ملامح إنسان قبل كل شىء، وآخرون شخصية ناسك ونبى، وغيرهم صورة شخصية سياسية وواعظ وفيلسوف، وهو عند البعض مجرد افراز لنتاج اسطورى، وبناء على هذا يأخذون كأساس لتحليلهم سمات تكمن فى مجالات مختلفة، بحيث أن عرضهم يخلق إحساسا عاما بتنوع وتباين مفرطين. ولكن لا مفر من هذا، فذلك الإحساس يعبر عن اللوحة الفعلية للتصورات السائدة المرتبطة بشخصية مؤسس المسيحية الواقعى أو الوهمى.

نبدأ بالتعليم حول شخصية المسيح التى تعظ بها الكنيسة المسيحية.

(١) المسيح المتعدد الوجوه

الإنسان الرب ؟ (مسيح الكنيسة)

تستحيل عمليا الإحاطة بالمراجع اللاهوتية المكرسة لشخصية المسيح، وهى متنوعة من حيث مغزاها. ونجد فيها عددا كبيراً من مختلف التفسيرات المتناقضة فى أحوال كثيرة. وهى لا تتطابق إلا فى تقدير الدور التاريخى للمسيح باعتباره منشىء المسيحية ومؤسس الكنيسة.

يعتبر، بناء على تقليد العهد الجديد، إن المسيح جمع حوله فى حياته مجموعة من الرسل والتلاميذ الذين توصلوا بعد وفاته بالنشاط الدعائى الدؤوب إلى نشر التعاليم الجديدة فى بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، ومن ثم اجتاحت المسيحية كل أوربا بالتدريج. وحرص مؤسس الكنيسة أيضا على خلف له بمثابة رئيس للكنيسة، وعين الرسول بطرس هذا الخلف، كما جاء فى انجيل متى.

لتوضيح التفسير الكنسى لشخصية يسوع المسيح نفسها سنستخدم الوثيقة الرسمية الرئيسية للتعاليم المسيحية، قانون الإيمان (credo)، وكذلك بعض قرارات المجامع المسكونية فهى أيضاً وثائق رسمية للتعاليم المسيحية وتعتبرها الكنيسة حقائق لا تدحض.

ينبغى القول، لا للانتقاد، بل لتأكيد حقيقة لا تدحضى، أن التعاليم عن المسيح التى تعترف بها الكنيسة ضبابية جداً ولا تخضع إلا بصعوبة للصياغة المتتابعة المنطقية. وهذا، بالمناسبة، ما لا ينكره أيديولوجيو المسيحية أنفسهم. وغالبا ما يمكننا أن نرى فى المؤلفات اللاهوتية إشارات إلى غموض وإبهام هذا العنصر أو ذاك من عناصر المسلمات المسيحية المرتبطة بالتعاليم حول شخصية مؤسس المسيحية. وفى هذه الحالات تعطى الصيغة التى

اصطلحت عليها الكنيسة فيقال أنه لما كان فهمها مستعصيا على العقل البشرى، فلا بد من الإيمان بها كحقيقة عليا ونهائية. وسنحاول إدراك فحوى التعاليم عن المسيح التى تذود عنها الكنيسة باعتبارها تعاليم حقيقية.

نبدأ بكيفية صياغة هذه التعاليم فى قانون الإيمان. ويسمى بالقانون النيفيو قسطنطينى، لأنه نوقش وأقر فى مجمعين مسكونيين كنسيين. مجمع نيقيا عام ٣٢٥ ومجمع القسطنطينية عام ٣٨١. لقد أقر مجمع نيقيا بنود القانون السبعة الأولى، وأقر مجمع القسطنطينية البنود الخمسة الأخرى. ومع كل المناقشات الضارية الكثيرة التى هزت العقيدة وعلم اللاهوت المسيحيين على امتداد قرون، بقيت البنود الاثنا عشر لقانون الإيمان إلى الآن دعامة للمسيحية لا تسمح أية من الكنائس الأساسية بالتشكيك فيها.

فما الذى يقوله القانون عن يسوع المسيح ؟

إنه يشغل حيزا مركزيا فى هذه الوثيقة الأساسية للعقيدة المسيحية. من أصل اثنى عشر بندا كرست له ستة بنود (من الثانى إلى السابع). يطلب القانون الإيمان بالرب الواحد يسوع المسيح الذى يصفه بأنه المولود الوحيد من الأب الإله قبل كل العصور. ولكن تظهر هنا صعوبة معينة على الفهم: إذا كان المسيح مولودا، حتى ولو من الآلة، فإن هذا ينبغى أن يحدث فى لحظة معينة من الزمن، وإذا كان مولودا "قبل كل العصور"، لهذا يعنى أنه وجد دائما، وبالتالى لا يمكن أن يكون ولد فى وقت ما.

وهذا التناقض لاحظه الهرطوقى الشهير أريوس فى حينه. فقد انطلق من أنه إذا كان المسيح قد ولد فى لحظة ما، فهذا يعنى أنه ظهر من العدم، أى صنع وخلق. ومن هنا توصل أريوس إلى استنتاجات بعيدة المدى فى صدد مغزى المسيح كله: إذا خلق فليس ازليا، أى ليس إله، بل مجرد مخلوق من صنع الآله، وأن كان أكثر المخلوقات كما لا. وقد أدانت الكنيسة أراء أريوس باعتبارها أشد الهرطقات ضرراً.

يؤكد البند الثانى نفسه من القانون أن يسوع "نور من نور وإله حقيقى من إله حقيقى، مولود غير مخلوق، هو والأب من جوهر واحد... وهكذا، فإن الحديث يجرى عن إله.

يسوع المسيح إله ولده الإله الأب، وهو في الوقت نفسه يشكل مع أبيه شيئا واحداً . وكان إنسانا أيضا، وهذا ما تتحدث عنه بنود القانون اللاحقة.

" من أجلنا، الناس، من أجل انقاذنا، هبط يسوع من السماوات وتجسد من روح القدس ومن مريم البتول و "اتخذ صورة إنسان". وبعتبير آخر تجسد الرب المسيح مؤقت في صورة إنسان وظهر في الأرض في شكل يسوع الإنسان. وقد فعل هذا بهدف إنقاذ البشرية الخاطئة والمعذبة.

أن رسالة الإنقاذ، التي تعهد بها المسيح، نفذها عن طريق التضحية بالذات: " طلب من أجلنا في عهد بيلاطس البنطي وتعذب ودفن" . كانت تضحية للتكفير عن خطايا البشر. ولكن ليس الإله هو الذي تعذب وقتل، بل الإنسان الذي تجسد فيه الإله. ولم يقتل هذا الإنسان بصورة نهائية. يقول البند الخامس من القانون أن يسوع قام من اليوم الثالث بعد وفاته " كما جاء في الكتاب" . ثم صعد إلى السماوات، كما يقول البند السادس، وجلس عن يمين الإله الأب. وفيما بعد، كما يقول البند السابع من القانون، سيظهر " ثانية" ويحكم بالمجد الأحياء والأموات. وفي هذه المرة لن يكون لملكوته نهاية.

وهكذا، فإن شخصية المسيح، من وجهة النظر الكنسية، شخصية مزدوجة: أنه إنسان إله يجسد العنصرين الإلهي والبشري في وقت واحد. وهو كأله يشكل الأقنون الثاني في الثالوث، وهنا يكمن مغزاه الأزلي الخالد. أما شخصية يسوع البشرية فتبدو مؤقتة لا ترتبط إلا بثلاثة عقود من حياته الأرضية. ولكن يواجهنا هنا تعقيد آخر.

تعتبر الكنيسة العنصر البشري في يسوع دائما وازليا، شأن العنصر الإلهي، رغم أن هذا لا يتفق والاعتراف بولادته، أي واقع أنه " تجسد في صورة إنسان" في لحظة من الزمن. أن يسوع، وللحق يقال سيأتي في المستقبل إلى الأرض من جديد، ولكن "بكل مجدة" في هذه المرة، أي في صورة الهية، لا بشرية. ولكن الكنيسة تتخذ موقفا يقول بأن " طبيعتي" المسيح مندمجتان فيه اندماجا لا ينفصم. بيد أنه تقترن بهذا على نحو لا يدرك موضوعة مفادها أن هاتين الطبيعتين متحدتان بشكل لا ينفصل ولا ينفصم، ولكنه اتحاد " غير مندمج" ...

لقد دخلت الكنيسة هذه المتاهة المنطقية بالتدريج، فى خلال الصراع ضد " الهرطقة" التى وجدت تعبيرها فى المجامع المسكونية.

فى أولها – مجمع نيقيا (عام ٣٢٥) كانت تعاليم أريوس هى موضوع الصراع. وفى المجمع الثالث – مجمع أفسس (عام ٤٣١) – تقدم نسطور بمفهومه لشخصية المسيح. وقال أن يسوع ليس إلها، بل مجرد حامل للالوهية، وقد سكن الإله فى طبيعته البشرية كما يسكن فى هيكل. واعتبر هذا هرطقة ما بعدها هرطقة. والمجمع التالى – مجمع خلقيدونية (عام ٤٥١) – تعرض لقضية على طرف نقيض من وجهة نظر نسطور. هناك تحدث أوطيخا الذى قال أن فى المسيح طبيعة واحدة فقط، الطبيعة الإلهية التى طغت على الطبيعة البشرية تماماً. وقد أطلق على هذه التعاليم اسم الطبيعة الواحدة، ولقيت بدورها إدانة حاسمة من المجمع. وفيما بعد ظهرت فى شكل وسط، هو المشيئة الواحدة، أى التعاليم القائلة بأن المسيح يحمل طبيعتين (إلهية وبشرية)، ولكن مشيئه واحدة: إلهية فقط.

وتابعت المجامع الثلاثة اللاحقة معالجة هذه المسألة والبحث عن حل لا يتطابق مع النسطورية، ولا مع الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة، لعل المحرك فى هذا الصراع حول الدقائق اللاهوتية لم يكن التطلع إلى إيجاد الحقيقة بقدر ما كان الميزان الفعلى بين مصالح وتأثيرات التجمعات المتصارعة: كان على الفئة الحاكمة فى كل لحظة أن تذود عن وجهة نظرها لترسخ بهذا وضعها كصاحبة ومعتنقة منزهة للحقيقة الأزلية. وكانت تتوقف على هذا مصالح مادية وسياسية واقعية تماما. فقد طرح ضد بعض الجماعات التى كانت النسطورية رايتها الأيديولوجية، مبدأ يقول بأن الطبعتين متحدتان فى المسيح بشكل " لا ينفصل" و " لا ينفصم"، وكان لابد ضد القائلين بالطبيعة الواحدة من الذود عن المفهوم القائل أن الطبيعتين متحدتان " من غير اندماج" . واقتض الأمر الرضوخ لظهور خلل " خفى" فى نهاية المطاف.

أن العقيدة المسيحية احتفظت، إجمالا، على شكل مسلمة راسخة، بمبدأ يقول بأنه اتحدت فى شخصية المسيح " طبيعتان" مختلفتان ومشيئتان مختلفتان. ولا يبقى أمامنا، فى

ظل الانعدام المطلق لفهم هذا المبدأ، إلا أن نسجله وننتقل إلى متابعة عرض التعاليم الكنسية حول المسيح.

أن المسيح، كما جاء في قانون الإيمان، موجود الآن في السماء ويجلس منذ قرابة ألفي سنة عن يمين الإله الأب، منتظرا للحظة التي يجب أن يعود فيها إلى الأرض ليحاكم الأحياء والأموات. لقد قتل في الأرض كإنسان ضعيف، مسكين، وديع، وسيظهر " بكل مجده" كإله قدير وقيم على الكون.

فما هي الرسالة التي أداها المسيح زمن نشاطه في الأرض ؟ تقول تعاليم الكنيسة أن لهذه الرسالة ثلاثة جوانب. لقد برز في حياته الأرضية كنبي وأول قديس ومالك.

أن أول هذه الوظائف مفهومة ولا تحتاج إلى شروح خاصة. لقد تنبأ الإنسان الرب بنهاية العالم الحتمية وبعودته الثانية المقبلة، وأنار الناس بحقائق العقيدة التي يبشر بها.

الأمر اعقد بالنسبة إلى الوظيفتين الآخريين.

كان الواجب الأساسي للقديسين اليهود الأوائل يتلخص في تقديم الضحايا إلى الإله تكفيرا عن ذنوب الناس. وقد نفذ القديس الأول يسوع هذه المهمة بطريقة جديدة، مغايرة بالمرة. أنه وهب نفسه بمثابة ضحية قدمت نيابة عن البشرية كلها دفعة واحدة. وبهذا كفر قبل كل شيء، عن الخطيئة الأولى لأدم وحواء وألف بين الناس والرب الذي كان في حالة نزاع معهم منذ زمن الوقوع في الخطيئة.

وهنا أيضا يوجد بعض الغموض في التعاليم المسيحية. هل تشمل تضحية المسيح التكفيرية أخطاء أدم وحواء فقط، أو تشمل كل الخطايا التي ارتكبتها البشرية في تاريخها اللاحق , هذه المسألة تتجنبها الأدبيات اللاهوتية عادة. إذا اعتبر أن خطيئة أدم وحواء هي أصل فساد البشرية الخلقي، فمن الواضح أن التكفير يزيل تلقائيا آثارها التي تجلت في الخطيئة الشاملة للبشرية. عندئذ يظهر هذا السؤال. لماذا لم تؤد الرسالة التي نفذها يسوع باعتباره القديس الأول إلى زوال الشر في الأرض الذي هو، حسب تعاليم الكنيسة، نتيجة للخطيئة الأولى؟ ويأتي الرد على هذا غامضا، وهو يقول بأن التكفير الذي قام به المسيح

ازال فقط اللعنة من الأرض ومخلوقات الإله، أما تحقيق الخلاص نفسه فلن يأتى إلا بعد العودة الثانية.

ويصعب أيضا فهم وظيفة المسيح الثالثة – الملكية – فى الأرض. إذا كان الحديث يجرى عن واجباته الكونية بمثابة أحد أقانيم الثالوث، فليس هناك ما هو مستعص على الفهم، فالاله هو ملك الكون. ولكن المقصود هنا هو نشاط المسيح على الأرض فى تجسده البشرى. يتضح أن المسيح حتى فى كينونته هذه، كإنسان مسكين، مطارد، معذب، بقى ملكا على أى حال، لا ملكا " يهوديا" ، كما تقول الأناجيل (لا يركز اللاهوتيون كثيرا على الجوهر "اليهودى" لملكيته"، بل ملك للبشر كلهم وللعالم كله.

إليكم كيف يصف اللاهوتى الشهير المطران ما كارى " الأعمال الرئيسية التى تجلت فيها الخدمة الملكية ليسوع المسيح" : أولا – المعجزات، وفيها " أظهر سلطته الملكية على الطبيعة باسرها، بما فى ذلك على الجحيم وعلى الموت. ثانيا – هبوطه إلى الجحيم وانتصاره على الجحيم. ثالثا – قيامته وانتصاره على الموت. رابعا – صعوده إلى السماء.. (!)

لعل النقطة الوحيدة التى تحتاج إلى شرح هى هبوطه إلى الجحيم، لأن القراء، كما هو مفروض، مطلعون بدرجة من الدرجات على المظاهر الأخرى للنشاط الملكى للمسيح. هذا العنصر للعقيدة المسيحية يقوم على النص التالى من رسالة الرسول بطرس الأولى.... فالمسيح نفسه مات مرة من أجل الخطايا...

مات بس من أجل فجار ليقربنا إلى الله. أميت موت الجسد ولكنه أحيى حياة الروح، فانطلق بهذه الروح يبشر الأرواح التى فى السجن (١٨/٣ – ١٩).

لقد بنيت على هذا النص فى الأدبيات اللاهوتية رواية مسهبة عن أن المسيح فى خلال تلك الأيام الثلاثة، حينما كان جسده مستلقيا فى الضريح ينتظر القيامة، قام برحلة إلى الجحيم، مع العلم أن روحه وحدها هى التى قامت بتلك الجولة. وهناك انتصر على الشيطان وأخرج من الجحيم كل اتقياء العهد القديم. وبهذا أظهر قوته وسلطته الملكيتين.

وهكذا تتشابك فى المواعظ الكنسية – المسيحية شخصية المعذب المطلوب وشخصية الملك السماوى، بل وحتى الدنيوى. فهو، من جهة، المسيح الذى تعذب وأمرانا بأن نتعذب، وهو، من الجهة الأخرى، الذى يدين الأحياء، والأموات، حاكم العالم الذى يصرع كل شيء فى اختلاج عظمته وقدرته. ولما كانت الكنيسة هى ممثلته فى الأرض، وحيث أنها تعمل بمثابة " الجسد الخفى للمسيح" وتعلم باسمه وبسلطته، فيجب أن تبرز فى المقام الأول ملامح عظمة المسيح وجبروته.

وهذا الاتجاه يتجلى بوضوح خاص فى تعاليم وممارسة الكنيسة الكاثولوليكية. أن بابوات روما يلقبون أنفسهم vicarius Christi أى ولاة المسيح أو نوابه فى الأرض. ويهمهم، طبعا، أ، ينوهوا بتلك الجوانب فى شخصية المسيح التى لا يبرز فيها كواعظ معدم وناسك غفور ووديع، بل كحاكم لا لافئدة الناس وعقولهم فقط، بل ولمصائرهم الدنيوية، وكمبدأ للقوة والسلطة أعلى من كل المراجع الدنيوية. ويدعى البابوات، باعتبارهم مندوبين مباشرين ليسوع المسيح فى الأرض، بأنهم يتمتعون بقوة فوق دنيوية، وبسلطة لا يطالها الشك.

فى زمن مضى لم يكن بابوات روما يدعون السلطة الملكية على كل العالم فحسب، بل كانوا أحيانا قريبين من امتلاكها. ولم يكن من النادر فى القرون الوسطى أن يجعل ولاة ملك الملوك الحكام الدنيويين لا روبا الغربية فى خضوع كامل لهم. وفى الوقت الحاضر لا مجال، طبعا، حتى لمجرد الحديث عن سيطرة الفاتيكان على هذه الدول أو تلك، حتى ولو كان أغلب سكانها من الكاثوليك المؤمنين. ولكن ادعاء الملكية، بقى قائما على أى حال: الفاتيكان موجود كدولة مستقلة، والبابا ملكها. وهذا الظرف يعلل أيديولوجيا بكون يسوع ، الذى أسس كنيسة روما بواسطة الرسول بطرس، لم يكن ملكا سماويا فحسب، بل كان ملكا دنيويا أيضا.

هذا الطرح استخدم على نحو مغاير بعض الشيء فى الكنيسة الأرثوذكسية: البيزنطية أولاً: ثم الروسية. فنتيجة لظروف تاريخية لم يكن عند الكنيسة الأرثوذكسية إمكان ادعاء التفوق على السلطة الدنيوية. وكانت نفسها على مدى قرون طويلة خاضعة للأباطرة

لبيزنطيين والقياصرة الروس. وفى ذلك الوضع كانت تبارك سيطرتهم، وتمجد الملوك لدنيويين كتجسيد وظل للملك السماوى، وهنا أيضا يؤدى يسوع المسيح دور هذا الملك لسماوى.

ولم يعد منذ بداية القرون الوسطى يصور فى شخصية انجيلية معدمة ومعذبة فحسب، ل وكملك على رأسه تاج وفى يده صولجان، أما الرسل والناس الآخرون المحيطون به يتصرفون بما يتفق تماما وقواعد السلوك المهيب المتبع فى البلاط البيزنطى. ويصور الكثير من الأيقونات المسيح إلى جانب هذا الإمبراطور الدنيوى أو ذاك، مع العلم أن " ملك لملوك" يبارك الملك الفعلى أو يضع التاج على رأسه. وأدخلت فى لقب. الأباطرة البيزنطيين، ومن ثم الروس تسمية " المخلص" التى تقابلها بالعبرية القديمة كملة " مشياح " وباليونانية " خريستوس".

إن رحمة ووداعة مسيح الإنجيل قد منيتا أيضا بخسارة جوهرية جداً فى التصوير الكنسى. فالكنيسة، المحاكمة الجبارة والرهيبة، سند العروش ، ومنافستها أحيانا، صاحبة ملايين الأقنان فى القرون الوسطى، الجلادة القاسية لكل من له تفكير مغاير أو يميل إلى أقل مقاومة (ويكفى تذكر محاكم التفتيش)، كانت تعمل أيضا باسم المسيح. ولهذا لم يكن من الملائم والمجدى لها دائما أن تتحدث عن رحمة المسيح، أو عن عدم مقاومة الشر من باب أولى. كان أيديولوجيوها يتذكرون هذا حينما ينبغى حث المضطهدين والمستغلين الذين طفح كيل صبرهم على عدم المقاومة وعلى الرحمة.

لا تنبذ الكنيسة من سلاحها الأيديولوجي شخصية المسيح البسيط والفقير والمعذب والغفور والوديع والذى لا يلقى بالا إلى خيرات الدنيا. وحتى أنها تبرز هذه الشخصية فى المقام الأول إذ اقتضت الظروف. ولكن هذا على أى حال يجرى عند الضرورة، وفى المناسبات، أما المسيح الحاكم، أول الملوك فى الكون باسرة، الآمر الرهيب فيشغل منذ عهد بعيد حيزا مركزيا فى الأيديولوجيا والدعاية الكنسيتين.

أن التغير الذى أصاب المسيح فى ممارسة الكنيسة وأيديولوجيتها لم يكن مقبولا بالنسبة إلى الكثير من المؤمنين فى الماضى، كما أنه غير مقبول فى الحاضر.

فعلى امتداد ما يقرب الألفى سنة من وجود المسيحية ظهرت مرارا حركات اجتماعية موجهة ضد الكنيسة تحت شعار العودة إلى مسيح الإنجيل المعدم والوديع والرحيم والغفور. وهذا الشعار لم يغب أبدا من حيث الجوهر، ولا تزال أصداؤه مسموعة إلى وقتنا الراهن.

فى القرن الماضى وقف ضد الفهم الكنسى للمسيح عملاقا الحياة الروحية للبشرية، مثل الكاتبين الروسيين العظيمين فيودور دوستويفسكى وليف تولستوى.

www.al-maktabeh.com
مكتبة
المهتدين

مصير الحرية الداخلية ؟

(كما يراه ف. دوستويفسكى)

أعرب الكاتب عن آرائه باسطع ما يكون على ألسنة أبطال مؤلفاته. إن الأمير ميشكين لجذاب والنقى نقاء البلور فى رواية " الأبلة " يتهم الكنيسة الكاثوليكية بأنها شوهت صورة لمسيح. " فتعظ الكاثوليكية... بالمسيح المشوه وتعظ بمسيح معاكس هى نفسها افترت عليه شتمته ! إنها تعظ بنقيض المسيح ... (٢) ، وهكذا ، فإن مسيح الكنيسة هو نقيض المسيح ن حيث الجوهر.

والشىء نفسه يقوله شاتوف فى رواية " الشياطين" . أعلنت روما المسيح خاضعا لوسوسة لشيطان الثالثة و.... أبلغت العالم كله بأن المسيح لا يستطيع الثبات بلا مملكة دنيوية فى لأرض وبهذا أعلنت الكاثوليكية نقيض المسيح وقتلت العالم الغربى باسره". (٣) نعيد إلى لأذهان أن " الوسوسة" الثالثة" تتلخص كما يقول الأناجيل فى ما يلى: مضى أبليس يسوع إلى " جبل عال جداً، ومن هناك عرض " جميع ممالك الدنيا ومجدها" وعرض عليه ن يعطيه هذا كله إذا " خر ساجداً". وقد رفض يسوع هذا العرض بغضب. أما بالنسبة إلى مخصية رواية دوستويفسكى فيبدو الأمر على النحو التالى: الكنيسة تعظ بمسيح لم يصمد مام إغراء السلطة وباع نفسه لنقيض المسيح لقاء حساء من العدس.

يحدث إيفان كارامازوف فى رواية " الأخوة كارامازوف" شقيقه أليوشا عن قصيدة ألفها عول قاض محكمة التفتيش العظيم. فيها بطلان: قاض التفتيش والمسيح. (٤) الأول هو ناردينال الكنيسة الكاثوليكية، وراهب فى التسعين من العمر، ذكى وماجن، يتقد تعصبا، هذا التعصب، بالمناسبة، لا يعود إلى إيمانه بالله وبأبنه المطلوب، بل إلى أدراكه المتكبر

لعظمة الكنيسة ورسالتها كقائدة للبشرية. البطل الثاني. هو ابن الله الذى ظهر للناس بعد قيامته بخمسة عشر قرناً، أنه يسير بين الناس صامتا بابتسامة هادئة تعبر عن تعاطف لا نهاية له، وهو متواضع بلا حدود وعاجز تماما يفهم كل شيء ويصفح عن كل شيء. وعلى الرغم من أنه لا ينطق باية كلمة على امتداد القصيدة كلها ولا يقوم إلا بفعل واحد. يبعث فتاة ميتة فى السابعة من العمر، فى حين أن الكاردينا يتكلم كثيرا جداً وببلاغة، فإن بطل القصيدة الحقيقى هو الإنسان الرب على أى حال. تنكشف ف كلمات قاض التفتيش نظرة الكنيسة الكاثوليكية إلى شخصية المسيح كما يتصورها إيفان كارامازوف. يبرز المسيح هنا أمام القارئ فى صورة مبتكرة للغاية، والنظر فى هذا الفهم لشخصيته أمر ممتع ومفيد.

نذكر بأن الأمر يجرى فى مدينة أشبيلية الأسبانية فى القرن السادس عشر، فى إرهب أزمنة محاكم التفتيش، حينما كانت تشتعل النيران تمجيدا للرب فى البلاد يوميا. فى ذلك الوقت كان قد مضى خمسة عشر قرنا منذ أن أعطى المسيح وعدا بأن يأتى بكل سلطانه، خمسة عشر قرنا منذ أن كتب النبى سأعود قريبا... ولكن البشرية تنتظره بالإيمان و أنحنان السابقين. وفى يوم عيد فى الصف ظهر فى ساحة أمام الكاتيدرائية. للشعب المتألم، المعذب، الخطىء، والذي كان يحبه مع ذلك. وعرفه الشعب، مع أنه ظهر بهدوء، وخفية، فاندفع إليه وأحاط به وتبعه.

ولكن يظهر قاض التفتيش العظيم. ويأمر الحرس على الفور بأخذ الإنسان الرب، وبلحظة خاطفة ينحنى الحشد كله كشخص واحد إلى الأرض أمام قاض التفتيش. وفى الليل يأتى الأخير إلى يسوع فى سجنه المنفرد وينهال عليه بسيل من اللوم والاتهامات. أن الباعث الرئيس للغضب الذى أبداه، قاضى التفتيش – الكاردينال يتلخص فى أقواله التالية. لماذا أتيت تضايقنا؟ لقد أعطيتنا، أعطيت الكنيسة، " حق العقد والحل، ولا تستطيع، طبعا، حتى مجرد التفكير فى انتزاع هذا الحق منا الآن". وإذا كان الأمر كذلك، فلا حاجة لنا إليك، لا بل أنت مضر لنا وخطر علينا إلى أقصى حد. وعلاوة على ذلك، فإن أول قدوم للمسيح، حينما تجسد الإله في صورة إنسان، كان مضرا للبشرية أيضا، حسب مغزى كلمة الاتهام التى ألقاها قاضى التفتيش العظيم.

ومن وجهة نظر الكاردينال، كان نشاط يسوع فى الأرض ينبع من عدم فهم جوهر وطبيعة الإنسان، ذلك المخلوق الضعيف والغبى. يقول قاض التفتيش. "ثمة ثلاث قوى، ثلاث قوى وحيدة فى الأرض قادرة على قهر واسر ضمير هؤلاء المتمردين الضعاف من أجل سعادتهم، وهذه القوى هى: المعجزة والسر والنفوذ". وقد قيدت مجتمعة حرية الناس، وكان هذا لخير البشرية، لأنه " لم يكن هناك شىء " فى يوم من الأيام أشد وطأة على الإنسان والمجتمع البشرى من الحرية" و " لا يوجد اهتمام أكثر تواصلا واضنى على الإنسان من أن يبقى حرا ويبحث بسرعة عمن ينحنى له". ولكن يسوع نفى هذه الأسس الثلاثة لحياة المجتمع التى تعطى الناس حرية تنقذهم من الحرية. واقتصر على دعوته إلى أن يتبعوه وأغراهم بأنهم يستطيعون، إذا وضعوا صورته فقط نحب أعينهم، أن يقرروا بحرية مسألة ما هو خير وما هو شر.... وكان ذلك وبيلاً.

اذاً رأى قاضى التفتيش الاتجاه الوخيم الذى يرتكبه يسوع فى صراعه ضد المعجزة والسر والنفوذ؟ بالنسبة إلى الأخير الأمر واضح. لقد رفض نفوذ الفريسيين والكتبة، القديسين الأوائل والمشرعين اليهود. " أنتم سمعتم، وأنا أتكلم...." أما في خصوص السر، فإنه يمكن بالاعتماد عليه تعليم الناس " الخضوع الأعمى، حتى بما يخالف ضميرهم، أما يسوع فكان يستعين بقرار قلوبهم الحر على أساس الحب. وقد شهر كذلك بمفهوم المعجزة. لم يقبل مرتين التحدى باجتراح المعجزة، فلم يقذف نفسه من الصخرة حينما اقترح عليه الشيطان ذلك، ولم ينزل من الصليب، حينما تحداه الحشد المعادي بأن يفعل هذا.

فى غضون السنوات الألف والخمسمائة المنصرفة قومت الكنيسة، كما يؤكد الكاردينال، الشر الذى اقترفه يسوع. " لقد قومنا مأثرتك وبنيناها على المعجزة والسر والنفوذ". أن الكنيسة بنت مأثرة يسوع الخاصة فى نظر المؤمنين على أساس آخر تماما وتحالفت، متسترة باسمه، وبهيبته، مع نقيض المسيح، مع الشيطان. ويهتف الكاردينال: " اسمع، نحن لسنا معك، بل معه. نحن لسنا معك منذ زمن بعيد، بل معه منذ ثمانية قرون".

من أين ظهر هذا التوقيت الزمنى؟ لماذا ثمانية قرون، لا خمسة عشر ؟ يبدو أن دوستويفسكى، أو على وجه الدقة، كارامازوف عند دوستويفسكى، لا يتحدث عن الكنيسة